طبيبة غزة: من الأستوديو إلى الخيمة

يحيى صلاح المغربي، مصر

تتتبع هذه الشهادة رحلة ريمان وزميلاتها من طلبة الطب الفلسطينيين الذين اتخذوا من السودان "ملاذاً تعليمياً"، بعد حرب 2014، ليجدوا أنفسهم عالقين في "فقدان غامض (Ambiguous Loss)" بعد اندلاع حرب الخرطوم 2023 وعودتهم القسرية إلى غزة. تستخدم الشهادة أطراً سوسيولوجية ونقدية لإدوارد سعيد وهومي بابا وبولين بوس لتحليل حالة "الغياب المزدوج" والتحولات الهوياتية والاقتصادية التي واجهها هؤلاء الأطباء "الافتراضيون"، وصولاً إلى تحول سرديتهم من أروقة الإستوديوهات إلى خيام النزوح، حيث يواجهون اليوم برزخ المنفى الدائم وصراع البقاء المهني والإنساني.

كانت محطة معبر رفح في العام 2022 تقوم بدور عنق الزجاجة، ممر ضيق مضغوط حيث تنكمش الجغرافيا في ممر واحد ملئ بالغبار. في هذ اليوم، كان الحر يتلاشى من الحواجز الخرسانية، لكن ريمان ماضي وقفت متحدية كآبة الحدود. ارتدت فستان تخرجها، القماش الأسود الصناعي الثقيل كظاهرة حريرية تحت خلفية شاحنات الديزل المتوقفة وآليات الاحتلال. كان من المفترض أن يكون هذا رمزاً للنصر: عودة الابنة إلى الوطن، ابنة وطبيبة وسفيرة نجحت في التنقل بين التضامن التعليمي في الخرطوم لتأمين مستقبل عائلة نجت من حرب 2014. ومع ذلك، عندما لامست أطراف الفستان حصى غزة، بدأت الصورة تتصدع. لم تكن هذه عودة إلى الوطن، بل كانت انحداراً إلى طبقة أعمق وأكثر تركيباً من المنفى. الشهادة التي حملتها كانت "وطناً محمولاً"، كما يسميها إدوارد سعيد،[1] وهي شهادة تهدف إلى توفير السيادة للفلسطيني حيث لا تستطيع الدولة توفيرها. وبدلاً من ذلك، أصبحت شهادة على ما تحدده بولين بوس بـ"الفقدان الغامض" حالة وجود يكون الفقدان فيها غير محدد وغير قابل للمعالجة، بل حالة مستمرة من عدم اليقين المستمر والمهتز الذي يتآكل معه أساس الذات.

لطالما عُرفت السردية الفلسطينية بجدلية الصمود والمنفى، وبالرغم من ذلك فإن التاريخ المعاصر لقطاع غزة خاصة في العقد الذي تلا حرب 2014 وسبق حرب 2023 يتطلب إعادة تشكيل مرة أخرى—زماناً ومكاناً. نحكي هنا قصة ريمان، صديقتنا الفلسطينية في السودان، إذ هاجرت كآلاف الشباب الفلسطيني من غزة إلى السودان لمتابعة تعلُّم الطب. لم تكن هذه الحركة سعياً مجرداً للحصول على المؤهل الأكاديمي فحسب، بل كان تنقلاً اجتماعياً وسياسياً بالتزامن مع الحصار "الإسرائيلي"، وكان استخداماً استراتيجياً لمفهوم العروبة الشامل، وتمريناً عميقاً على تشكيل الهوية العابرة للحدود.

فلسطينيو غزة الذين كانوا بالآلاف في السودان يدرسون في كلية الطب، غادروا غزة المحاصرة ليشهدوا انهيار السودان بين سنتي 2019 و2023، ما أجبرهم على العودة الصادمة إلى وطن كان نفسه على شفير الفناء. كانت تجربة هؤلاء الطلاب تشكل منفى مزدوجاً فريداً يتميز بحالة مستمرة مما تصفه المعالجة الأسرية بولين بوس بالفقدان الغامض، وتصدع الهوية.

تمثل ريمان حالة خاصة من هجرة أهل غزة إلى السودان في إطار النزعة العابرة للحدود Transnationalism. تفترض النظرية العابرة للحدود الكلاسيكية أن المهاجرين يحافظون على روابط متزامنة مع دولتين قوميتين. وبالرغم من ذلك، فإن تجربة ريمان في السودان تخترق هذه النظرية، المهاجرون الغزازوة إلى السودان لم يهاجروا بالأساس من دولة ذات سيادة إلى دولة مضيفة، بل على العكس هاجروا من جيب "بلا دولة" تحت الحصار العسكري الصهيوني إلى دولة "فاشلة" تخوض غمار الثورة... كانوا يعيشون في فضاء ثالث على حد وصف عالم ما بعد الاستعمار الهندي هومي بابا، لكنه كان فضاءً ثالثاً من الهشاشة.

في عمله الرائد **تأملات في المنفى**، يصف إدوارد سعيد المنفى بأنه "حالة منقطعة من الوجود (discontinuous state of being)". بالنسبة لريمان في العام 2021 طالبة الطب الغزاوية في الخرطوم، كان الانقطاع متفاقماً. كانت ريمان وقريناتها فعلياً في الخرطوم ورقمياً في غزة، تراقب ريمان الغارات الجوية عبر واتساب مع ذويها أثناء حضورها دروس التشريح. كان جسمها في قاعة محاضرات في جامعة الإمام في الخرطوم، ونفسيتها مرتبطة بالعنف الإيقاعي في قطاع غزة. وهذا ما خلق هوية ريمان الغزية—السودانية المميزة، فتاة ذات وعي هجين، سواء كان كوزموبوليتانياً أو قومياً عربياً، لكنه متأثر بعمق بصدمة غزيَّة شرسة.

الهروب من سجن مفتوح 2014

على أنقاض الشجاعية وبيت حانون المدمرة بعد العدوان "الإسرائيلي" على غزة في 2014، بدأت تتشكل في وعي آلاف الشباب في غزة فرصة الذهاب إلى السودان للدراسة. كانت حرب الخمسين يوماً، التي أسماها الاحتلال بـ"الجرف الصامد"، لحظة فاصلة لجيل ريمان. مع استشهاد أكثر من 2000 فلسطيني واستهداف البنية التحتية التعليمية الحيوية، تقلص أفق الاحتمالات في غزة بشكل عنيف. فبالنسبة لطلبة المرحلة الثانوية الذين تخرجوا في ظل هذا الصراع، لم تكن الجامعة مجرد خطوة تالية، بل منفذ هروب.

كان دافع ريمان وأقرانها للمغادرة مدفوعاً بما وصفه رشيد الخالدي بـ"استمرار السرد الفلسطيني" و"رفض المحو."[2] فلطالما كان التعليم هو الوطن المحمول للفلسطينيين. وفي حالة انعدام الدولة، تعتبر شهادة الطب هي العملة النهائية للبقاء، ذلك أن التعليم هو الممتلكات غير القابلة للنقل أو السرقة أو المصادرة عند نقطة تفتيش. وهكذا، أصبح السعي وراء الطب استراتيجية عائلية جماعية للبقاء.

ولكن، لماذا السودان؟ في المشهد الجيوسياسي في منتصف العقد الثاني من الألفية الثالثة، كانت الخيارات المتاحة للطلاب الفلسطينيين تتناقص. كانت المراكز التقليدية للتعليم الفلسطيني (سوريا، ومصر، والعراق) إما معادية سياسياً أو غارقة في صراعاتها الخاصة. وحده السودان، تحت حكم عمر البشير، حافظ على سياسة قوية للتضامن التعليمي. فأصبحت منحة السودان شريان نجاة.

على عكس المنح الدراسية الغربية التي تتطلب تأشيرات معقدة غالباً ما تعيقها سيطرة الاحتلال الصهيوني على الحدود، سهَّل السودان دخولاً نسبياً معقولاً. وللترابط الثقافي دلالة كذلك، فالسودان مكان عربي إسلامي حيث شعرت العائلات الغزية أن أبناءها وبناتها، سيكونون آمنين ثقافياً. وقد مهد هذا الطريق لهجرة عقول جماعية.

بحسب النتائج السوسيولوجية اللافتة من البيانات الديموغرافية فإن تركيبية الجنس في مجموعة طلاب الطب، تشير إلى وجود أغلبية كبيرة من الإناث تصل إلى 65.6 % في بعض الاستطلاعات و81.6 % في استطلاعات أخرى. تتحدى هذه الإحصائية القوالب النمطية البسيطة للاستشراق حول العلاقات بين الجنسين في غزة، كما تشير إلى مرونة عملية داخل النظام الأبوي الفلسطيني: كانت العائلات وعوائل الأسرة الشجعان، كالأستاذ خالد ماضي والد ريمان، مستعدين دائماً لإرسال بناتهم آلاف الأميال إلى الخرطوم لضمان مستقبلهن التعليمي.

هذا التأنيث في تدفق الهجرات كان له آثار عميقة في إعادة بناء الهوية. فبالنسبة للعديد من الشابات في غزة، مثلت الخرطوم مساحة "حكم ذاتي" نسبية. كن بعيدات عن المراقبة الفورية للعائلة الممتدة في قطاع غزة، وتنقَّلن في العاصمة، وأدرن بيوتهن بأنفسهن، وشرَّفن أسرهن بأداء مسؤول، وشاركن في المجال العام كطبيبات المستقبل. يعكس "هَيا بودكاست" الذي تقوده فتيات غزيات، هذه الفئة الديموغرافية المتمكنة.[3] ولذا، فإن قصة ريمان ليست مجرد قصة طالبة، بل قصة امرأة تتفاوض على مكانتها في فضاء عابر للحدود.

طبيبة "تقريباً" 2019

الخرطوم، بالنسبة للطالب الغزي، كانت مفارقة، كانت "بوتقة" بمعنى أنها عرضتهم لحرارة وضغط شديدين، وشكلت منهم جميعاً هوية جديدة. كيف كانت الحياة اليومية والبيئة الأكاديمية للطلاب الفلسطينيين في السودان خلال السنوات المضطربة بين سقوط البشير واندلاع الحرب الأهلية؟

المنهج الطبي في الجامعات السودانية (الخرطوم، الجزيرة، الإمام، جامعة العلوم والتكنولوجيا) معروف بدقة الدراسة، ولكنه معروف كذلك بضعف الموارد: بالنسبة للطلاب الغزيين، كان هذا منظراً مألوفاً. دخلوا إلى نظام يتطلب فطنة إكلينيكية عالية دون الاعتماد على تقنيات التشخيص المتقدمة والأجهزة الحديثة. هذه "تربية الندرة" التي، ربما دون قصد، أعدتهم للمشهد الصحي المدمر الذي سيواجهونه لاحقاً في غزة.

إحصائياً، كان الالتزام بهذا التعليم هائلاً. وامتد متوسط سنوات الدراسة حتى التخرج إلى 6.44 سنة. لم يكن هذا التمدد بسبب الفشل الأكاديمي، بل، كما تقول ريمان، كان بسبب الانقطاعات المنهجية في السياق "السياسي" السوداني—الإضرابات، الثورة، الجائحة. أصبح الانتظار عنصراً رئيسياً في تشكيل طلابنا المهني. كانوا دائماً طلاباً في حالة تعليق، كنَّ طبيبات "تقريباً".

كانت الثورة السودانية في 2019 حدثاً نفسياً محورياً لهذه الدفعة. وبما أنهم نشأوا تحت الركود السياسي الناتج عن حسم حركة حماس الصراع في قطاع غزة بعد الانقسام السياسي بين حركتي فتح وحماس، فلم يكن لديهم خبرة كافية في الانتفاضات الشعبية الناجحة. في الخرطوم، شاهدوا بأم أعينهم أقرانهم من طلاب الطب السودانيين يطيحون بنظام عسكري دكتاتوري.

من الناحية السوسيولوجية، كانت هذه الشهادة تعمل كشكل من أشكال الوكالة السياسية غير المباشرة vicarious political agency، بينما منعهم وضعهم كضيوف أجانب (وجودهم الهشّ) من المشاركة في الاحتجاجات، إلا أنهم تنفسوا هواء الاحتجاجات. كانت شعارات "الحرية، السلام، العدالة" تتوافق مع تطلعاتهم الوطنية المكبوتة. غرست هذه الفترة شعوراً بالقوة المدنية يتناقض بشدة مع حالة الجبرية السياسية التي سادت قطاع غزة المحاصر. لقد تعلم الطلبة درساً عسيراً، وهو أن الأنظمة قد تسقط أحياناً.

ومع ذلك، فقد جلبت الثورة أيضاً عدم الاستقرار، إذ أصبحت إغلاقات الجامعة مستمرة ومتكررة. بدأ "الملاذ الآمن" يتشقق. أصبحت اتحادات الطلاب الفلسطينيين في السودان نقاط دعم للمغتربين، وتعمل على توفير السكن والمساعدات المالية عندما أغلقت الجامعات. وقد رسخ هذا مجتمع "الغزيين في السودان" ككيان شتات معتمد على ذاته، مميز عن الحركة الطلابية الفلسطينية الأوسع.

وبينما يعيشون في الخرطوم، أنشأ طلاب غزة "فضاءً ثالثاً" بتعبير هومي بابا. لم يكونوا سودانيين بالكامل، لكنهم كانوا مميزين عن سكان غزة في وطنهم. تبنوا التعبيرات العامية السودانية، وطوروا ذوقاً للمأكولات المحلية السودانية، وتعاملوا مع الديناميكيات العرقية والقبلية المعقدة في المجتمع السوداني.

لم يكن تكيف ريمان الثقافي استيعاباً كاملاً. ظلت مدركة تماماً لفلسطينيتها، ورأت نفسها سفيرة غير رسمية للقضية. ومع ذلك، واجهت وحيدة المشاعر المعادية للفلسطينيين التي ظهرت أحياناً في الدول العربية المضيفة، وأحياناً مشاعر التضامن الساحقة الخانقة لإنسانيتها. تعلمت في الحالتين أن تتنقل بين هذه التيارات الاجتماعية، واكتسبت مهارتها الثقافية التي جعلت من ريمان ريمان—المهارة الضرورية للمهنيين العابرين للحدود.

من حرب إلى حرب

تخرجت ريمان وعادت إلى غزة في 2022، ارتدت زيَّ التخرج عند المعبر لكي يفرح بها أبوها الذي أرسلها سفيرة للفلسطينيين في جامعات السودان، وعادت إليه بعد أن شرَّفته في أفريقيا العربية المسلمة. لكنها خلفت وراءها زملاء عاشوا معاناة أكبر من أن تُكتب. في 15 نيسان/ أبريل 2023، اندلعت التوترات المتصاعدة بين القوات المسلحة السودانية SAF وقوات الدعم السريع RSF إلى حرب مفتوحة. بالنسبة للطلاب الفلسطينيين الذين خلفتهم ريمان وراءها في الخرطوم بعد تخرجها، كانت هذه التجربة كابوساً عاشوه من قبل في غزة.

أثار صوت القصف في الخرطوم ردود فعل فورية لاضطراب ما بعد الصدمة عند أهل غزة. لم تكن الصدمة هذه المرة لكونهم يعيشون خبرة جديدة، بل كان رعب المألوف الذي خلفوه وراءهم في القطاع المحاصر. تم تهجير 93.1 % من طلاب الطب في فترة ما بعد الحرب الأهلية.[4] وارتفعت درجات الضيق النفسي.

كان الإخلاء من الخرطوم في نيسان/ أبريل 2023 تجربة لوجستية اختبرت صمود الطلاب بشكل آخر. تضمنت الرحلة نزوحاً برياً خطيراً إلى بورسودان، وذلك تجنباً لنقاط تفتيش قوات الدعم السريع والغارات الجوية، تلاها إجلاء بحري إلى جدة أو مصر، وأخيراً رحلة حافلة إلى معبر رفح.

كانت العودة إلى غزة رمزية. كانوا يدخلون إلى "السجن" نفسه الذي قضوا سنوات يحاولون الهروب منه، لكن هذه المرة كانوا يفرُّون إليه بحثاً عن الأمان. المفارقة الملموسة هنا، هي ما وصفته الأمهات في غزة عن الانتظار المؤلم، اللواتي لم يعرفن إن كان أبناؤهن وبناتهن "في الجنة أم على ظاهر الأرض". عندما وصلت الدفعة الأولى المكونة من 172 طالباً إلى رفح في 28 نيسان/ أبريل 2023، كانت تلك أعلى لحظات التنافر المعرفي الوطني: الاحتفال بسلامة أبناء عائدين إلى منطقة حرب.

الصدمة الفريدة هنا هي انتهاك "الملاذ الآمن". اعتادت السودان، التي غادرتها ريمان، أن تكون المكان الذي يذهب إليه الفلسطيني هرباً من الحرب. ولكن أن تلاحقهم الحرب إلى السودان خلَّف لديهم شعوراً بالسجن العالمي. لقد شعروا بأن العنف ليس حدثاً فلسطينياً حصرياً، بل هو حالة ملاصقة لوجودهم ذاته. يصف وائل المصري، طالب طب قوبل أثناء الإخلاء، الوضع ببساطة أنه حرب أهلية، وهي عبارة تحمل دلالات ثقيلة على فلسطيني عاش مطلع أيام صراع الفصائل طفلاً في 2007.[5]

عودة إلى ريمان: الفقدان عن بعد

في شهور السلامة القليلة، سجلت ريمان قصتها التي اقتبسنا تفاصيلها في "هَيا بودكاست"، البودكاست المدعوم من جمعية داليا—منصة شباب غزة لسرد واقعهم. في سياق العائدين، عمل هذا البودكاست كفضاء مضادّ

counter-space. فقد وصفت ياسمين البنا، عضوة في الفريق، المبادرة بأنها "تحولت من ستوديو إلى خيمة" بعد حرب أكتوبر 2023 في غزة.[6]

تمثل رواية ريمان داخل هذا النظام الصوتي صوت الطبيب "تقريباً". فقصتها ليست قصة درامية، بل عن الألم الصامت الثقيل الناتج عن الإمكانات المهدورة. من خلال البودكاست، تحولت الإحصائيات المجردة إلى صوت بشري يعبر عن فقدان المستقبل.

تعرف بولين بوس الفقدان الغامض Ambiguous Loss بأنه خسارة لا تزال غير واضحة وبالتالي تفتقر إلى المعالجة. فبالنسبة لريمان يظهر هذا في شكلين مميزين. الشكل الأول، هو الغياب الجسدي مع الحضور النفسي: فالسودان الذي عرفته قد انتهى. تفرَّق أساتذتها أو قتلوا: مهاجعهم تم نهبها من قوات الدعم السريع الهمجية. ومع ذلك، فإن هذا السودان الضائع لا يزال يشغل أذهانهم بالكامل. هم حاضرون نفسياً في الخرطوم، يتفقدون قنوات الأخبار بهوس، وينعون مدينة أقلَّتهم لبضع سنين لم تعد كما هي. والشكل الآخر، هو الغياب النفسي مع الحضور الجسدي: جسدياً، ظلت ريمان موجودة بأمان مع عائلتها، لكن نفسياً، غابت، ولا تزال منفصلة عن الواقع مجبرةً لأن هويتها المتجذرة في مستقبل مهني تم تعليقه مؤقتاً. إنها حاضرة مع العائلة على مأدبة العشاء لكنها تغيب بروحها، ولا تزال عالقة في حالة مما قبل التخرج.

تقاوم ريمان وفريق هَيا بودكاست وغيرهم سردية أسطورة "السوبر غزيين". هذه الأسطورة (أنهم يمتلكون قدرة خارقة للطبيعة على الصمود) منتشرة بعمق في الخطاب الدولي. وهي رومانسية تُجرِّد الضحية من إنسانيتها بحرمانها من حق الانكسار. تتحدى ريمان هذه السردية. فهي لا تريد أن تكون بطلة صلبة، بل تريد أن تصبح طبيبة مقيمة مبتدئة في مستشفى تعليمي. إن الضغط الدائم على أداء الصمود يدفع إلى حبس التوتر داخلياً. فترتفع معدلات القلق والاكتئاب بين الفلسطينيين لا من آثار الحرب وحسب، بل أيضاً جرَّاء القمع الدائم لشعور الحزن الذي يجبرهم عليه تصور "الغزِّي السوبر". تسمح تجربة البودكاست بالتعبير عن الضعف، والغضب، ورفض أن تكون "صامداً" على حساب الإنسانية.

اقتصاد غزة ما قبل الحرب

لم تكن عودة ريمان إلى غزة مجرد صدمة نفسية بل كانت كذلك تصادماً اقتصادياً، يمثل الانتقال من الاقتصاد السوداني إلى الاقتصاد الغزِّي تحولاً عنيفاً في القوة الشرائية والمنطق الاقتصادي. كان الطلاب في السودان يستعملون الجنيه السوداني. وعلى الرغم من التضخم إلا أن تكاليف المعيشة مقارنة بالخدمات الأساسية كانت قابلة للإدارة لأولئك الذين يأتيهم المال من الخارج. أما غزة، فتتعامل بالشيكل "الإسرائيلي"، وهي عملة قوية من العالم الأول مفروضة على العالم الثالث المحاصر.

الفارق واضح هنا: تخضع الاستشارة الطبية في القطاع الخاص الفلسطيني لتسعيرة تتراوح بين 30 و42 شيكل (8-11 دولار أمريكي) للممارس العام.[7] وعلى النقيض من ذلك، فإن تكاليف المعيشة (الغذاء، الوقود، الكهرباء) مرتبط بأسعار السوق "الإسرائيلية". هذا التناقض النقدي يعني أن الطبيب في غزة يتقاضى أجراً بالكاد يغطي رزقه في اقتصاد الشيكل. ومقارنة بالقطاع الطبي الصهيوني يبرز الفصل العنصري في الأجور. فقد يكسب الاستشاري "الإسرائيلي" 40 ألف شيكل شهرياً. في حين يكسب الاستشاري الغزي الذي يمتلك مهارة طبية مماثلة أقل من 1500 شيكل، إذا تمكن من العثور على وظيفة أصلاً.

يتميز القطاع الطبي في غزة بتناقض قاسٍ: نقص مزمن في المتخصصين والإمدادات، وفائض هائل في الخريجين، ونسب بطالة بين الخريجين الجدد تصل إلى 74 %. وقد بلغ اليأس الاقتصادي بخريجي الطب أن اضطروا للحصول على تصاريح للعمل كعمال يدويين باليومية داخل المستوطنات الصهيونية في فلسطين المحتلة 1948. كان الأجر اليومي للعامل في "إسرائيل" 67 دولاراً (250 شيكل) بالمقارنة بـ9-10 دولار (35 شيكل) في غزة.[8]

بالنسبة للعائدين من السودان، كان هذا الواقع محطِّماً. أنفق الطلبة 6 سنوات من أعمارهم وآلاف الدولارات ليصبحوا أطباء، ليكتشفوا أن الطريقة الوحيدة لإطعام عائلاتهم في غزة هي العمل في البناء في الدولة التي تحاصرهم. هذا هو التجلي النهائي للتراجع عن التنمية de-development كما تصفه سارة روي، أي التفكيك المنهجي لقدرة الاقتصاد على استخدام رأس ماله البشري الخاص.[9]

أشعلت "فيزيتا" (كَشفية) الطبيب التوتر الاجتماعي. ومع امتلاء القطاع العام وعدم القدرة على دفع رواتب أطباء منتظمة، انتشرت العيادات الخاصة، ولم يستطع المواطنون الفقراء بسبب الحصار تحمل حتى رسوم 30 شيكل "متواضعة". وقد أدى ذلك إلى إنشاء "قطاع طب الظل"، فغالباً ما وجد العائدون، مثل ريمان، أنفسهم يتطوعون في المستشفيات لأداء عمل المقيم دون لقب أو أجر، فقط للحفاظ على مهاراتهم الطبية من الضمور. أصبحوا أطباء الظل الضروريين لبقاء النظام الصحي في حين لم تقرّهم البيروقراطية الرسمية بذاك.

التسلسل الزمني للانفصال

تقدم مقالة ألفريد شوتز السوسيولوجية "الغريب" إطاراً قوياً لفهم العائد.[10] يقترب الطالب العائد من المجموعة الرئيسية بقلب متسائل. لم يعد هؤلاء "الأطباء تقريباً" فلسطينيين أصليين بالكامل، فقد أصبحت لديهم عادات جديدة، وأفكار سياسية جديدة، ورؤية أوسع للعالم.

كانت العائلات في غزة تتوقع عودة أبنائها وبناتها كما غادروا، كأبناء وبنات منصاعين. بدلاً من ذلك، عادوا بالغين مصدومين: نجحوا في إدارة المنزل في الخرطوم، ونجوا من حرب أهلية. خلق ذلك احتكاكاً بين الأجيال. وشعر العائدون أنهم "خارج المكان" بتعبير إدوارد سعيد في منازلهم،[11] ما أدى إلى شعور بالاغتراب الاجتماعي زاد من إحباطهم المهني.

لقد كانت المفارقة المأساوية في تقاطع السودان مع غزة هي أن "أمان" غزة لم يدم أكثر من 6 أشهر، فقد تبع التهجير في نيسان/ أبريل 2023 اندلاع الحرب على غزة في تشرين الأول/ أكتوبر 2023. والمستشفيات التي كان هؤلاء الطلاب يأملون في التدريب فيها (الشفاء، ناصر، الإندونيسي) أصبحت ساحات للمعركة الرئيسية، وتم دفع أطباء الظل فجأة إلى النور في دور جراحين في "الخطوط الأمامية".

تنتقل سردية ريمان هنا من الخسارة الغامضة إلى الخسارة الكارثية. وتحول إستوديو هيا بودكاست إلى خيمة. وتحول الصراع من أجل السردية إلى صراع من أجل المياه والطحين. وتم قصف الجامعات في غزة تماماً كما تم قصف الجامعات في الخرطوم.

وبحلول سنة 2025، تشير التقارير إلى أن بعض الطلاب، الذين كانوا يائسين لإنهاء دراستهم، حاولوا تنظيم دورات إكلينيكية مؤقتة في مخيمات النزوح في رفح والمواصي.[12] أقامت الجامعات في تورونتو وأماكن أخرى "حفلات تخرج بديلة" للطلاب في غزة.[13] وعلى الرغم من قوتها الرمزية، إلا أن هذه الطقوس تبرز غياب المؤسسة الفعلية التي تم دكُّها وتسويتها بالأرض.

لقد تفرَّق فيلق طلاب الطب الغزاوي في السودان: بعضهم قضى شهيداً، وبعضهم يعالج المرضى في المستشفيات الميدانية حتى الآن، وبعضهم لا يزال يوثق محتواه حتى الآن، وبعضهم نجح في النزوح. ريمان ماضي الآن طبيبة حرة في مصر تعمل بشكل غير رسمي وتواجه مشاكل في استخراج أوراق المزاولة. وكانت تستعد لدخول امتحانات مجلس التقييمات المهنية واللغوية البريطاني PLAB حتى فوجئت قبل أيام بقرار مجلس الصحة البريطاني بإعطاء الأولوية في أماكن التدريب الطبي في بريطانيا لخريجي كليات الطب البريطانية، ما يغلق أمامها مساراً مهنياً آخر ناضلت لأجله بعد اجتياز امتحان زمالة الكلية الملكية لأطباء النساء والتوليد MRCOG.

شهور قليلة من الاغتراب

يصف عبد الملك الصياد حالة "الغياب المزدوج (Double Absence)" بأنها مرآة للاغتراب الذي يشعر به العائد إلى بلده بعد سفر طويل.[14] العائد يعكس "الفراغ الاجتماعي والشخصي والسياسي" الذي نشأ في وطنه خلال سنواته في الخارج. يعودون جسدياً، ليواجهوا صدمة العودة إلى الوطن، وليدركوا أن المنزل الذي كانوا يشعرون بالحنين إليه لم يعد موجوداً، وحلت محله المقبرة. مصير العائد في قصتنا هو أن يكون حاضراً وغائباً في آنٍ واحد –محصوراً في غزة ومنتمياً إلى العالم الرحب الفسيح لتكونه العلمي والفكري. هذا هو البرزخ الدائم للمنفى الدائم.

في أدبيات المنفى في الجنوب العالمي (محمود درويش، محسن حامد، زينة حلبي) أن العودة ليست أبداً استعادة للماضي السعيد.[15] العودة إلى غزة هي "عودة غريبة" حيث يصبح المألوف (منزل الطفولة) غريباً لأنه لم يعد قادراً على دعم الجسد الواعي للبالغ العائد. العودة إلى الوطن في قصتنا هي منفى ثانوي، عاشته ريمان ثم عاشه أقرانها الذين تلوها بالعودة.

وخلال أيام معدودة، يستيقظ العائدون الذين يشعرون بالاغتراب على صوت صواريخ تشق السماء، وعلى صوت "الضيف" يشق الهواتف، بأن طوفان الأقصى قد بدأ. وبين مشاعر الفرحة والقلق، يبدأ المغتربون في الانتظام في مستشفيات غزة جنوداً مدافعين عن الجسد الفلسطيني، يطبقون كل ما استفادوه في جامعات الدنيا التي جاءوا منها لإنقاذ الأرواح.

ستة شهور هي الهدنة التي منحتها الحياة لأولئك الشباب، لم تكن سعيدة بطبيعة الحال، وإن كانوا يتمنون اليوم أن يعيشوها مجدداً. من حرب إلى حرب ومن ترحال إلى ترحال ومن تهجير إلى تهجير. أصبح الأطباء الفلسطينيون أسرى واقع أصعب من أن يعيشوه منفردين. الآن ينبغي لنا أن نروي حكايتهم، وينبغي علينا الإنصات لها. الآن، في الهدنة الكاذبة، يمكننا أن نتسامع بقصص أشخاص ليسوا مجرد أرقام. وليسوا بطبيعة الحال أبطالاً خارقين. هم بشر مروا بنكبات إنسانية عادية جداً، مغرقة في العادية، حتى قرر العدو الصهيوني وسط الصمت العربي أن يجعلها غير عادية.

ومن منفى إلى منفى تستمر الحكاية..

الإحالات

[1] Edward W. Said, *Reflections on Exile and Other Essays* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000).

[2] Rashid Khalidi, *Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness* (New York: Columbia University Press, 1997; reissued 2010)

[3] **بودكاست هيا**، شوهد في 29 آب 2026.

https://www.youtube.com/@hayapodcast. _

[4] Toga Khalid Mohamed, et al., "Medical Education under Siege: The War's Impact on Medical and Paramedical Sudanese Students," *BMC Medical Education*, Vol. 25, No. 1 (2025): 861.
https://pmc.ncbi.nlm.nih.gov/articles/PMC12211513/ .

[5] "Palestinian Students Reach Gaza After Fleeing Sudan," *Al-Monitor*, 28 April 2023, accessed 14 August 2026.
https://www.al-monitor.com/originals/202304//palestinian-students-reach-gaza-after-fleeing-sudan

[6] "Voices from Gaza: Studio Tent - Resilience Continues," *Dalia Association*, accessed 14 August 2026.
https://www.dalia.ps/news/voices-gaza-studio-tent-resilience-continues

[7] "نقابة الأطباء تتمسك برفع الأسعار وشركات التأمين تلوح بوقف التأمين الصحي،" **وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية (وفا)**، 14 شباط 2023، شوهد 14 أغسطس 2026.

https://api.wafa.ps/Pages/Details/65795 .

[8] Baker Zoubi, "Stripped of Permits, Gaza Workers Stranded in the West Bank," *+972 Magazine*, 12 October 2023, accessed 14 August 2026.
https://www.972mag.com/gaza-palestinian-laborers-permits/ .

[9] Sara Roy, *The Gaza Strip: The Political Economy of De-development*, 3rd ed. (Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies, 2016).

[10] Alfred Schutz, "The Stranger: An Essay in Social Psychology," *American Journal of Sociology*, Vol. 49, No. 6 (1944): 499–507.
https://www.journals.uchicago.edu/doi/10.1086219472/ .

[11] إدوارد سعيد، **خارج المكان: سيرة ذاتية**، ترجمة فواز طرابلسي (بيروت: دار الآداب، 2000).

[12] Reuters, "Israel, Hamas War Impacts Future of Gaza Medical Student," *VOA Africa*, 30 January 2024, accessed 14 August 2026.
https://www.voaafrica.com/a/israel-hamas-war-impacts-future-of-gaza-medical-student/7461554.html .

[13] "'Under the Rubble of Our Dreams': Vigil Honours University Students Killed by Israeli Forces as Western University Graduation Ceremonies Unfold," *NB Media Co-op*, 29 June 2024, accessed 14 August 2026.
https://nbmediacoop.org/202429/06//under-the-rubble-of-our-dreams-vigil-honours-university-students-killed-by-israeli-forces-as-western-university-graduation-ceremonies-unfold/ .

[14] Abdelmalek Sayad, *La double absence: Des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré* (Paris: Éditions du Seuil, 1999).

[15] محمود درويش، **في حضرة الغياب** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2006)؛
Mohsin Hamid, *Exit West* (New York: Riverhead Books, 2017); Zeina G. Halabi, "Exile" in *The Cambridge Companion to Modern Arabic Literature*, ed. Michael Allan (Cambridge: Cambridge University Press, 2024).

سرد